من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧، كانت، من جهة، نتيجة لمجمل أوضاع الاحتلال، ثمّ غدت، من جهة أخرى، وضمن تطورات أخرى، عاملاً أساسياً في صوغ برنامج الاعتدال الفلسطيني. ولشدة وضوح هذا العامل لا حاجة الى الوقوف عنده مطولاً.

ثاني الاسباب والعوامل المباشرة هذه يتمثّل في ادراك منظمة التحرير الفلسطينية لطبيعة المرحلة، ولطبيعة ضغوط الظروف الموضوعية السائدة، ولقوة نصائح الاصدقاء. فقد وجد قادة المنظمة أنفسهم ازاء معلومات عربية، ودولية، حليفة وصديقة ومحايدة، تقول لهم ان عربة الانفراج الدولي، التي بدأت رحلتها بقوة الحصانين، الاميركي والسوفياتي، ومرّت ببؤر توتّر وصراع عديدة، هي، بدون ريب، آتية الى المحطة الفلسطينية ـ الاسرائيلية والمحطة العربية ـ الاسرائيلية. وبعبارات أخرى، فان موجة الانفراج، في رحلتها لاطفاء الحرائق، تكاد ان تصل لتباشر دورها في عملية اطفاء حرائق الصراع العربي / الفلسطيني ـ الاسرائيلي. وقد قيل لقادة المنظمة، في غير مناسبة، ومن غير جهة صديقة وغير صديقة تماماً، ما مؤداه انه قد أصبح على الفلسطينيين ومنظمة التحرير، بعد ان نجحوا في السنوات الماضية، وعبر كفاح مرير، في اثبات، وتثبيت، أنفسهم في وجه محاولات التغييب وطمس الوجود كافة، فأكدوا وجودهم بوصفهم جزءاً لا يتجزأ من مشكلة الشرق الاوسط أو جوهر مشكلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي، أصبح عليهم ان يقرّروا في ما اذا كانوا يريدون البقاء في اطار كونهم «جزءاً من المشكلة»، أم يريدون ان يصبحوا جزءاً من الحل. وعند هذه النقطة، قرّر قادة منظمة التحرير الفلسطينية ان لا يضيّعوا الفرصة المتاحة، بل وان يغتنموها لخوض ما اعتبروه «معركة السلام»، ممارسين دور المنظمة، باعتبارها الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني. وبعبارات أخرى، لقد اختار أولئك القادة ان لا يبقوا، وحدهم، في صقيع «العمل السياسي»، وان يسيروا مع الركب العالمي، ومن ضمنه العربي، السائر على دروب التسويات، وان يكونوا جزءاً من الحل، بعد ان نجحوا في وضع فلسطين والفلسطينيين على خارطة «المشكلة» باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ منها[١٥].

ثمّ تعزّز الحاح العامل الثاني ذاك بقوة ضغط العامل المباشر الثالث، المتمثل في المخاوف الناجمة عن «الحرية المطلقة» التي يتحرك بها «البولدوزر» الاسرائيلي، بفضل قوة الطاقة التي تزوّده بها الصهيونية والولايات المتحدة الاميركية، من جهة، و«الفراغ العربي»، من جهة أخرى، وعلى حدّ سواء. واذا كان دور الصهيونية والولايات المتحدة واضحاً، فان «الفراغ» المادي العربي، والنابع، في اصوله، من الفرقة والتجزئة ومعارك التناحر العربية، قد أتاح، أيضاً، ولا يزال يتيح، للبولدوزر الاسرائيلي الاستمتاع بذلك القدر من الحرية في العمل الصهيوني التوسعي ـ الاجلائي. ومن جهته، ما فتىء البولدوزر الاسرائيلي يمارس اندفاعته؛ أولاً لفرض «الأمر الواقع» الصهيوني التوسعي القاضم ـ الهاضم ـ الضامّ للأرض الفلسطينية، والعربية، المحتلة، وثانياً لفرض تهويد وصهينة الوجود المادي الفلسطيني، والعربي، تحت الاحتلال، الامر الذي كان فاعلاً ـ ضمن عوامل أخرى ـ في صنع الانتفاضة، وفي اندلاع نارها، اعتباراً من التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٧[١٦]. ومن هنا، ارتأى عدد من القادة الفلسطينيين الفاعلين ضرورة المبادرة الى الانسجام مع معطيات الشرعيتين، العربية والدولية، على أمل دق أكثر من اسفين، من اجل ضمان عرقلة، وايقاف، وبالتالي تراجع، البولدوزر الاسرائيلي، بعد قطع كل، أو معظم، او بعض، شرايين امداده بالطاقة الصهيونية، سواء أكانت «صهيونية اليهود» أينما كانوا وفي الولايات المتحدة بالذات، أو «صهيونية الاغيار» أينما كانوا وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص. ويبدو ان القادة الفلسطينيين قد رأوا في مثل ذلك التحرّك الأمل الكبير لحماية أبناء شعبهم، كي لا يصبحوا «الهنود الحمر» الجدد، بعد ان اصبحوا، في